

## سِرُّ الْعِظَةِ

لِلْأَسْتَاذِ تَوْفِيْقِ الْحَكِيمِ



ينبغي لمن أراد  
أن يدرك سر عظمة  
النبي أن يتخيل  
رجلاً وجيداً  
فقيراً تمكنت من  
قلبه عقيدة فنظر  
حواله فإذا الناس  
كلهم في جانب ،  
وإذا هو بمفرده  
في جانب . هو  
وحده الذي يدين  
بدين جديد ، ينه  
الدنيا كلها : أهله

وعشيرته ، وبلده وأمنته ، والفرس والروم والهند والصين وكل  
شعوب الأرض لا يرون ما يرى ، ولا يشعرون له بوجود .  
هذا موقف النبي ، وهذا موقف العالم : رجل حاطل من كل  
قوة وسلاح ، إلا مضاء العزيمة وصلابة الإيمان ، أمام عالم  
تدعمه قوة العدد والعدة ، وتوازره حرارة عقيدة قديمة شب  
عليها وورثها عن أسلافه ، واتخذت لها في قرارة نفسه  
وأعماق تاريخه جذوراً ليس من السهل اقتلاعها على أول قادم .  
فالنبي هو ذلك القادم الذي يريد أن يقتلع تلك الجذور ويضع  
مكانها غرساً جديداً . والعالم القديم هو ذلك السادن القوى  
لثلك الشجرة المتسيدة ، يذود عنها وتأتي كرامته أن يفرط في  
ورقة منها . إنها إذن « مبارزة » بين فرد أعزل ، وبين عصر  
بأسره يزجر غضباً : عصر زاخر بأسلحته ورجاله ، وعقائده  
وفقهائه ، وعلماؤه ومشاهيره ، وتقاليده وماضيه ، ومجده وتاريخه ...  
هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير نبي ...  
على أن المعجزة بعد ذلك ليست في مجرد التحدي وري « القفاز »

وارتفاع ذلك الصوت الضميف على شاطئ ذلك البحر الطامى  
العجاج : « أن أترك أيها العالم دينك القديم واتبعني » . ذلك  
الصوت الذي لا جواب عليه إلا سخرية طويلة وقهقهة عريضة ...  
وليست المعجزة كذلك في مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى ، إنما  
المعجزة حقيقة هي أن يخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من  
هذه المركة الخيفة ظافراً منتصراً ؛ فإذا هذا العالم المتيد كله يبحث  
عند قدميه منكس الأسلحة ، وقد اقلبت سخريته خشوعاً طويلاً ،  
وقهقهته صلاة عميقة كيف ربح هذا الرجل الموقمة ؟ ما وسائله ؟  
هل كانت له خطط وأساليب وقوة من شخصه مكنته من النصر ؟  
أو أن الله هو الذي نصره دون أن يكون لشخصية النبي دخل  
في الانتصار ؟ عقيدتي دائماً أن شخصية النبي لها أثر كبير

وهنا معنى الاسطفاء ، فإله يختار من بين البشر عظيماً له  
كاهل يحتمل عبء الرسالة ، ويوحى إليه بالمقيدة ثم يتركه يجاهد  
في سبيلها . فإله ليس آله تمحركها يد الله في كل خطوة ؛  
إنما هو رسول عهد إليه تبليغ دين والعمل على إذاعته بين الناس  
بالوسائل التي يراها الرسول كفيلاً يلوغ الناية . فإله لا يريد نشر  
الأديان بين البشر إلا بالوسائل البشرية . فهو لا يتدخل بقدرته  
الملوية يفرض الدين فرضاً على الناس كما تفرض عليهم الزواج  
والأمطار ؛ ولكنه يجب دائماً أن يخفى بين « الدين » وبين  
« الناس » حتى يتفائل الذين من تلقاء نفسه في نفوسهم بحمال  
نوره وحده ؛ ولكن أعين الناس لا ترى في كل الأحيان ؛ فهم  
يمشون في أعماق ماضيهم كالأسماك العمياء في أغوار المحيطات .  
هنا تبدأ متاعب النبي ؛ وهنا تبدو عظمتهم ؛ وهنا تظهر للمعجزة  
الحقيقية وهي إبراء الأعمى ، لا أعمى واحد ولكن ملايين العميان .  
فهو الذي يفتح أبصارهم على نور طالما جحدوا وجوده : نور الدين  
الجديد الذي أتى به . وهنا ينبغي التساؤل : كيف استطاع النبي أن  
يرى الناس ما يرى ، وأن يقنعهم بما جاء به ؟ . الجواب بسيط :  
حياة النبي وخلقه . إن الناس لا تقتنع بالكلام وحده . إنما يؤثر  
فيها الفعل والمثل . إن الناس يوم أيقنوا أن محمداً لا يسى إلى غنى  
ولا إلى ملك ؛ وأنه يريد أن يبقى فقيراً يشبع يوماً ويحج يوماً ،  
وأن كل تلك المخاطر التي يتعرض لها في كل خطوة ، وأن كل  
ذلك الهوان الذي يناله من سفهاء القوم وأكابرهم ... وأن كل

نور الدين . هنا صفتان لازمتان : الصبر والثابرة ، فإن المأقبة في الحرب لمن صبر وثابر . وإن أمامه غلباً جديداً ، هو الشك الذي يقوم الآن في رؤوس الناس . فإن كان حقيقة رجلاً عظيماً فليقتل هذا الشك بعفرده . وما هو بشك رجل واحد ، إنما هو شك أمة طامية . ولقد جاهد الرسول فعلاً في كل لحظة من لحظات حياته ، إلى أن استطاع ذات يوم أن ينقل العقيدة التي في قلبه حارة قوية إلى قلوب الناس جميعاً . وهنا كان النصر الأخير ، وتمت المعجزة . وتمكن هذا الرجل الواحد من أن يضع العالم في قبضته ، ويخضعه لفكرته ، ويطيحه إلى أبد الأبدن بخاتمه ، ويدخل إلى صدره أشعة نور جديد .

نوفيس الحكيم

ذلك الجهاد الذي ملأ به حياته بأكلها إنما هو في سبيل « العقيدة » التي يقول لم عنها ؛ منذ ذلك اليوم الذي اجتمع فيه كبراء أمته وعرضوا عليه ثروتهم ووعدوه أن ينصبوه عليهم ملكاً على شرط أن يتركهم على دين آبائهم ، فرفض المال والمجد والسلطان ، وأبى إلا شيئاً واحداً صغيراً : « أن يؤمنوا معه بفكرته » ؛ عند ذلك أدرك أولئك القوم جميعاً أن الأمر جد لا هنزل ؛ وأنهم أمام رجل لا ككل الرجال ؛ وأن الأذى الذي لا يفريه في الحياة شيء ، ولا يعيش إلا من أجل فكرة ، لا بد أن يكون قد أبصر في هذه الفكرة جمالاً لم يصروه م . « فكرة » لا تقوم بتناع من أمتعة هذه الدنيا الرخيصة ، و « جمال » يضحى في سبيله خير ما في الحياة . أمام هذا الرجل أخذ الناس يفكرون ملياً . وثبت لمن كان قد ارتاب في أمره أن مثله لا يمكن على الأقل أن يكون أفاقاً يعمل لمفم . إنما هو رجل صادق مخلص ، لا مطمع له من تلك المطامع التي يسعى إليها الناس في هذه العمار . عند ذلك بدأ كثير من الناس يجلسون إليه ويصفون إلى كلامه ... فوسيلة النبي الأولى وخطوته التي نزل بها الميدان هي إقناع هذا الخضم الصاحب من الخلق أنه مجرد عن الغايات الدنيوية . وهنا كانت قوته ؛ فإن أمضى سلاح في يد رجل يريد أن يقارع البشر ، هو أن يواجه البشر بيد خالية من أغراض البشر

ولكن هذا لا يكفي . فالناس قد تقتنع بأمانة النبي ، وقد تستمع إلى ما يقول ، ولكنها لا تستطيع أن تنبذ في يوم وليلة كل ما ضيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد . إن صدر الجماهير كصدر المحيط العميق ذي الماء الكثيف ، يدفع إلى سطحه كل جسم غريب ، ولا ينفذ إلى أعماقه إلا شيء ذو وزن ، بعد زمن وجهد . وإن الناس لشديدة الحرص على ما تسميه كتوز ترانها وتقاليدها . فما أدرهم أن هذا الكلام الجميل الذي جاء به هذا النبي ذو الحديث الطلي ليس إلا بضاعة زائفة ووهماً خلافاً لعب بلب هذا الرجل ؟ ولم لا يكون هذا الرجل الأمين المسكين فريسة مرض ومس ؟ ما هو الأجدر بهم عندئذ ؟ يطلبون له الطب حتى يبرأ ، أو يلتقون بكنوزهم ويتبعون حمله ومسه . لقد وضعت المسألة إذن وضماً آخر ، واتخذت الحرب ميداناً جديداً . ماذا يصنع النبي ؟ لا بد له من أن يبتدئ ضباب انشك الخيم على الأذهان حتى يصل إليها

صدر أخيراً  
أول كتاب عن

# جمال الدين الأندلسي

باعت

النهضة الفكرية في الشرق

لمؤلفه الأستاذ

محمد سليم هادي

وهو أول كتاب عنى بوجه خاص بكل ما أحاط بتاريخ وحياة وأعمال وآثار السيد جمال الدين في كل قطر وبلد بأسلوب سلس متين . وقدم له فضيلة الأستاذ مصطفى عبد الرازق بك وقرظه الأستاذة : شلتوت والشافعي والأسمر ...

ويقع الكتاب في ٢٦٠ صفحة من القطع الكبير ومحلى بالصور التاريخية للسيد جمال في مواقفه المختلفة وهو مطبوع على ورق أنيق مصقول ويطلب من جميع المكتبات المشهورة الثمن ١٠ قروش صاغ